

IV - بناء الخطاب الشعري عند فدوى طوقان:

تعين أن يكون الخطاب الشعري عند فدوى طوقان قسمين:

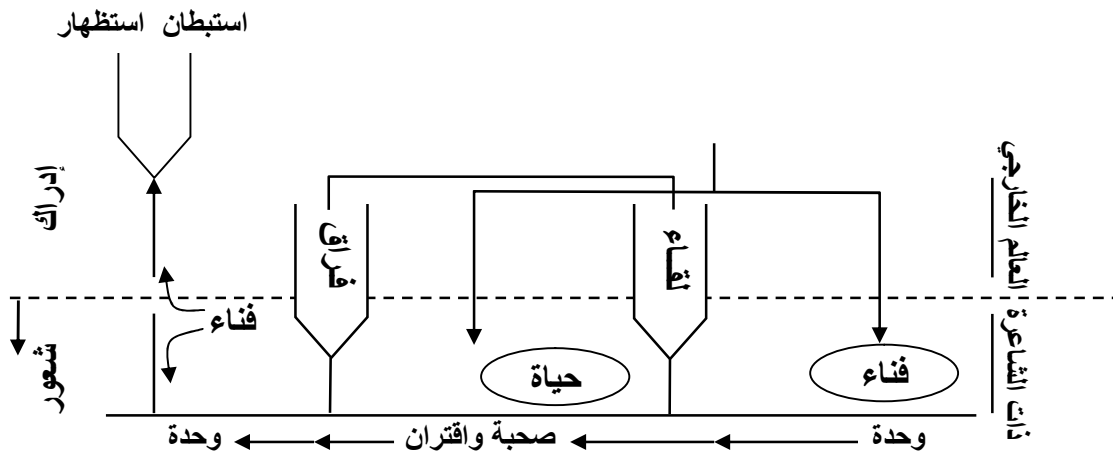
الأول ويشمل الأجزاء الأربعة الأولى:

1. وحدي مع الأيام
2. وجدتها.
3. قصائد من رواسب وحدي مع الأيام.
4. أعطنا حبا

الثاني ويشمل الأجزاء الثلاثة المتبقية :

1. أمام الباب المغلق
2. الليل والفرسان.
3. على قمة الدنيا وحيدا.

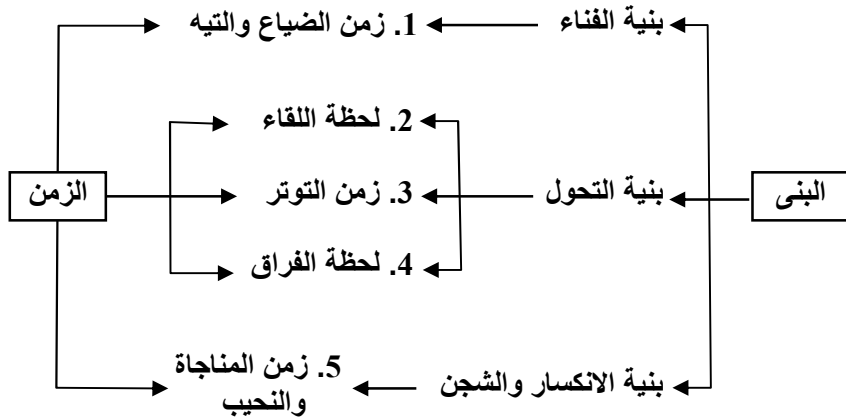
و يحمل القسمان محوري الانفعال الشعري وهو الصراع، صراع الإنسان مع الزمن/الدهر في الأول، وفي الثاني صراع الإنسان مع الإنسان⁽¹⁾. وهما نموذجان فكريان يتعين معهما تحديد البيئات العليا والكبرى⁽²⁾ لتقوم مقام العناصر المكوّنة لكل طرف. فأما صراع الإنسان مع الدهر فيقوم على محطتي اللقاء والفرق⁽³⁾ وما تابعهما من آلام وآمال، ونشوة ولوعة، واستظهار واستبطان. والحال كما يظهره الشكل:



¹ ينظر: محمد مفتاح: في سيمياء الشعر القديم، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، 1989. وهو يحلل نونية أبي البقاء الرندي، وفي: تحليل الخطاب الشعري، وهو يحلل رانية ابن عيود، حيث يبدو بين الإنسان والدهر صراع لا ينتهي.
² ينظر: فان ديك، نظرية الأدب في القرن العشرين، [2]ضمن مبحث: النص بنياته ووظائفها، ص 58 - 61.
³ شفيع السيد: قراءة الشعر وبناء الدلالة، ص 49. وكلامه هذا يخص قصيدة إبراهيم ناجي (عودة الغريب) وفيها يقول: (إن إجمالة النظر فيها يعطي دلالتين أساسيتين في تجارب الحب بعامة وهما: الفراق واللقاء). وهو ينطبق تماما على الخطاب الشعري عند فدوى طوقان.

ومن الشكل تتبدى ثنائية (الحياة/الفناء) أساسا متينا للخطاب في شقه الأول، تنبعث من وجدانها إحساسا واقعا يأخذ صورة (الصحة/الوحدة) بالتوازي مع الثنائية الأولى، ويتمظهر في العالم الخارجي بثنائية (اللقاء/الفراق)، على أن يكون الوصف والإخبار عن الحالات والانفعالات خاضعين لما يكتشفه البصر وهو يتأمل الذات المقابلة نافذا فيها، أو لما تجود به الذات نفسها **مفرغة** ما بداخلها في أسمع المخاطبين على أمواج حركتي الاستظهار والاستبطان اللتين تقودهما الشاعرة **منفردة**، لنلج من خلالها أعماقها الدفينة ونعائين شعورها الحزين، وتطبع محاكاتها⁽¹⁾ في نفوسنا رهبة. إنها تجربة ذاتية، تجمع بين النشوة والغبطة والسرور، وبين الحسرة والانقباض والأسى على امتداد الأزمنة ووقع اللحظات في مراحلها الثلاث، مصورة حلقة من مأساة الإنسان مع الدهر، وهو يطمئن إليه ويأمنه، فيباغته على حين غرة، لتتشكّل في كل مرحلة بنية تنطوي على هواجس الشاعرة وانفعالاتها في لحظة الكتابة.

وفي الخطاب صراع نفسي حاد، يتقلب بين الفناء والحياة، واللقاء والفراق، ليتعالق الشعور والإحساس في ذات الشاعرة مع واقع العالم الخارجي، ليتحول الفناء في مرحلة ما قبل اللقاء إلى حياة في المرحلة التي تليه، وكلاهما إحساس عميق يجوب جنبات نفسها، ثم يتحول في مرحلة ما بعد الفراق إلى فناء من جديد، يتسرب من أعماقها إلى فضاء العالم لينتشر صدى لأثر مضى.



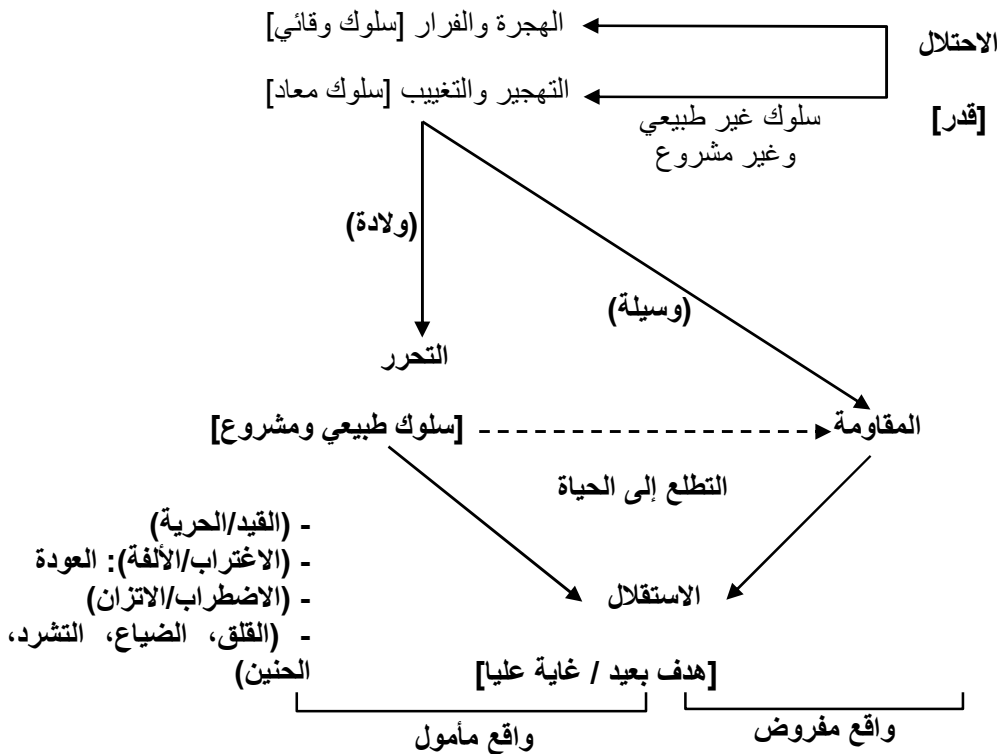
¹ - المحاكاة كما يراها حازم القرطاجني: منهاج البلاغة وسراج الأدباء، تق و تح: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، ص120: (تصوير الأشياء الحاصلة في الوجود وتمثيلها في الأذهان على ما هي عليه خارج الأذهان من حسن أو قبح أو على ما هي عليه تمويها وإيهاما). وينظر: محمد مفتاح، في سيمياء الشعر القديم، ص74. والمحاكاة عنده على أنماط ثلاثة:
- نمط للمطابقة ويقصد به التهويل والترهيب.
- ونمط للتقبيح ويقصد به العظة.
- ونمط للتحسين ويقصد به الترغيب.

ويؤكد القرطاجني في نفس المصدر، ص89، أن يتمثل (للسامع من لفظ الشاعر المخيّل أو معانيه أو أسلوبه ونظامه وتقوم في خياله صورة أو صور ينفعل لتخيّلها وتصورها أو تصور شيء آخر بها انفعالا ... إلى جهة من الانبساط أو الانقباض) هو ما يفترض حصوله من كل محاكاة. وعليه؛ يكون مجمل بناء الخطاب عند فدوى طوقان هو ما صنّعه محاكاتها من تخييل وتداع للصور المراد تعيينها عند المتلقي حسب ما تبين لي.

الفصل الثاني: التأويل المجمل

وتبدو الأزمنة الثلاثة منسجمة، تتوسطها لحظتان، ليكون التشكيل: زمنا ولحظة ثم زمنا ولحظة، وأخيرا زمنا، وفي ذلك تناسب مع الضياع واللقاء، ثم التوتر والفراق، وأخيرا النحيب في آخر المطاف.

ويقوم القسم الثاني من الخطاب الشعري عند فدوى طوقان على وجود واقعين، أولهما المفروض بفعل الاحتلال والمقاومة، والثاني المأمول بفعل ممارسة التحرر والتطلع إلى الحياة؛ ذلك أن وقوع الاحتلال قدرا، لا ينفي كونه سلوكا غير طبيعي وغير مشروع خاصة بحصول الهجرة والفرار - بوصفهما سلوكا إراديا وقائيا-، وكذا بحصول التهجير القسري والتغيب داخل السجون والمعتقلات، فهي العلة التي أجمعت في مرحلة تاريخية ما ولادة التحرر بوصفه سلوكا طبيعيا ومشروعاً لاحتلال الإنسان للإنسان وحرمانه من حق الوجود وحق الحياة الكريمة من دون قهر ولا تقييد للحريات ولا سلب للإرادة الذاتية والجماعية في اختيار نمط الوجود المرغوب فيه، غير أن وقوع الاحتلال - كما فرض ولادة التحرر. فرض الوسيلة التي يتحقق بها، وهي المقاومة المتطلعة إلى الاستقلال بوصفه هدفا بعيدا وغاية عليا. وهو ما يبيده الشكل:



يعطي الشكل ثنائيات يبني عليها الخطاب في شقة الثاني، وترتبط بالسلوكات الإنسانية في تقابلها وتعارضها مع النيات والمعتقدات؛ فلما كان التهجير والتغيب واقعين ضرورة في اعتقاد الفلسطينيين، -وفي ذلك سلب للإرادة وقمع للحريات- قابلوا هذا الوضع بالهجرة والفرار حفاظا على امتلاكهم لإرادتهم وشيء من حريتهم، وهنا تنشأ ثنائية (القيد/الحرية)، وتناسل منها ثنائيات (الاغتراب/و الألفة) بما ينمي رغبة العودة والرجوع إلى الأرض، و(الاضطراب/الاتزان) في حياة تجمع فيها المتناقضات لتكوّن وجودا غير منسجم؛ فما معنى أن يكون الإنسان حرا طليقا وفي ذات الوقت محروما من وطنه وأهله؟ وما معنى أن يكون نظيره محروما من حريته في الوقت الذي يعيش فيه في وطنه؟ وما معنى أن يكون الإنسان في وطنه ومع أهله والكل تحت سيطرة المحتل؟!¹

يصنع هذا الوضع فضاءً قائما على القلق والضياء والتشرد والحنين، وهي قيم نسجت حولها خيوط الخطاب الشعري نيرا وسدى.

يعطي القسمان -جمعا بين الوضعين- خطابا شعريا يقوم على الصراع والشعور بالنقص⁽¹⁾:



يترتب على الخطاطة أن الخطاب الشعري عند فدوى طوقان كما هو عند غيرها منطوق ومفهوم، ويختص عندها على ظاهرة الشعور بالنقص والفقدان (الحرمان)، فتأسس منطوق خطابها على نموذجي الصراع مع الدهر ومع الإنسان، وهو محمول الفصول الثالث والرابع والخامس. كما تأسس مفهوم خطابها على تعالق الإنسان بالمكان والزمان والقيمة المعنوية والصراع من أجلها برؤية متدرجة من الذاتية إلى الكونية وتصوير قائم على المماثلة (ressemblance) والتناظر (symétrie) والتحول (transformation) ليكون التأويل بالموافقة والمخالفة على مبدأ "الأولى إذا كان"، أي إذا كان المعنى يعين من الملفوظ، فما دخل في معناه معين بالضرورة موافقة، وإن كان المعنى محصوراً في شيء يعنيه، تعين خلافه خارجاً عنه بالضرورة مخالفة.

وفي أول منطوق الخطاب حديث حول الواقع، الواقع رؤيا المنام، والواقع الواقع كما هو في حياة فدوى طوقان، والتفصيل يجري وفق ما تعين في الإجمال ليرصد رؤية الواقع المعيش والواقع الهاجس في حياة الشاعرة.